**المحاضرة السابعة: الموشحات**

فن الموشحات الشّعر هو تعبير عن المشاعر، وشعور الشّاعر بما يدور من حوله، والموشّحات جمع للموشّح، وهو نوع من أنواع الشّعر، وسمِّي الموشّح بهذا الاسم لأنه يشبه وشاح المرأة بأشكاله وتطاريزه وتزيينه، للفت الأنظار إليها، فالموشّح والموشّحة والتّوشيح أراد مستحدثوه بهذه التّسمية أن يشيروا إلى هذا النّوع من الشّعر بأنّه نوع جديد استحدثوه لترصيع وتزيين الشّعر، فهو إذًا نوعٌ من الشِّعر العربيّ استحدثه الأندلسيّون، له أسماط وأغصان وأعاريض مختلفة، ولَهُ قَوَافٍ مُتَنَوِّعَةٌ، لا يتقيَّد فيها الشّاعر أو النّاظم بقافية واحدة، وغالبيّة الموشّحات تصل إلى سبعة أبيات، والموشّح الغنائيّ هو عبارة عن قصيدة مؤلَّفة من ثلاثة مقاطع متساوية فيما بينها ومقطع آخر مكرّر، وقد أُعدّت للغناء، وأمّا الموشّح السّداسيّ فهو لونٌ شعريٌّ يتألَّف من ستّة مقاطع، وكل مقطع يتألَّف من ستَّة أسطر، عدا المقطع الأخير فيتكوَّن من ثلاثة أسطر،وقد عرّف ابن سناء الملك الموشّح بقوله: "الموشّح كلام منظوم على وزن مخصوص" .

**نشأة فن الموشحات:** فتح العرب المسلمون بلاد الأندلس عام 713م، وأنشأوا فيها خلافة أمويّة عاصمتها قرطبة، تكاد تكون منفصلة عن الخلافة العبّاسيّة في المشّرق العربيّ، فأحدثوا نهضة موسيقيّة في الأندلس ما بين القرن الثّامن والقرن الخامس عشر الميلادي، وما كادت أن تنطفئ في البلاد العربيّة في القرن الخامس عشر، حتّى تلقّفها الغرب لتشعّ من جديد في أوروبا في القرن السّادس عشر الميلادي فكانت نشأة الموشحات بعد أن استقرّ الأمر للعرب المسلمين في بلاد الأندلس فتحوا فيها مدارس مختلفة، وأرادوا لهذه المدارس أن تتفوّق على المدارس في بغداد، وبذلك استطاعوا أن يجعلوا من قرطبة مركزًا ثقافيًّا وموسيقيًّا متميّزًا، وكان من بين الموسيقيّين العرب الذين ظهروا في قرطبة، وكان له حضوره المتميّز زرياب العظيم، وقد اعتبر إمام الغناء العربيّ وأبرز من ظهر في حقبة حضارة الدّولة العبّاسيّة في المشرق والأمويّة في المغرب، وكان زرياب قد تتلّمذ على إسحاق الموصلّي، وتعلّم الموسيقى الفارسيّة والعربيّة الشّرقيّة، ممّا جعله يمتلك مخزونًا ثقافيًّا منفردًا مكّنه أن يصل مكانة لم يسبقه إليها موسيقيّ عربيّ من قبل، وقد غنّى زرياب في بلاط عبد الرّحمن بن الحكم في قرطبة بعد أن فرّ من بغداد، وبذلك تكون ازدهرت الموسيقى العربيّة التّقليديّة وانتقلت إلى آفاق حضاريّة جديدة. الفارابي والآلات الموسيقية يعدّ الفارابي أعظم شخصيّة موسيقيّة عربيّة، ظهرت في تاريخ الموسيقى العربيّة في بلاد الأندلس، والذي استحدث على العود الوتر الخامس، بعد أن كان له أربعة أوتار، واستخدم الآلات الموسيقيّة القيثارة والطّنبور والشّهرود والزّهر والكنّارة والرّباب والقانون والسّرناي والكمنجة والمزمار والصّفارة والنّاي والشّبّابة، بالإضافة إلى آلات النّفخ النّحاسيّة والآلات الإيقاعيّة، وبعد سقوط الأندلس انتقلت معظم الآلات الموسيقيّة إلى أوروبا مع ألحانها، لتقيم أوروبا أكبر نهضة موسيقيّة في التّاريخ، وكذلك بسقوط حضارة العرب في الأندلس، انتقل معظمهم إلى شمال أفريقيا، وبذلك تركت الموسيقا العربيّة الأندلسيّة أثرًا كبيرًا في طابع موسيقا تلك البلاد كما يلاحظ حتّى هذا اليوم. ولادة فن الموشح تباعًا لإبداع عرب المغرب في الأندلس في فنّ الموسيقى، كان لا بدّ وأن يظهر فن شعريّ جديد متحرّرًا من قيود أوزان الشّعر التي التزموها في غنائهم طوال حياتهم، ويتماشى معه، ويكون عونًا ومكمّلًا له، وقد تمّ استحداث فن الموشّح، إذ جاء فنّ الموشّح، ونظّمت الموشّحات لتواكب الغناء والموسيقى، بعيدة كلّ البعد عن أي التزام بالوزن العروضي للشّعر وقافيته، والتي التزمها الشّعر العربيّ بشكل عام والشّعر الغنائيّ بشكل خاص منذ ظهوره،

وقد تمّت في الأندلس عمليّات التّبادل الثّقافي في فنون الموسيقى، وغيرها من العلوم الأخرى، بين العرب واليونان وغيرهم، من خلال حركة التّرجمة الواسعة النّطاق من العربيّة إلى اللّغات الأخرى وبالعكس. تطور فن الموشحات كما سبق ذكره فقد نشأ فن الموشحات في الأندلس في القرن التّاسع الميلادي تقريبًا، عندما ازدهرت الموسيقى وشاع الغناء في تلك البقعة وفي ذلك الوقت من جانب، ومن جانب آخر احتكاك العرب بالإسبان، ولذلك فكانت نشأة فن الموشحات استجابة لحاجة فنّية من جهة، ونتيجة لظاهرة اجتماعيّة من جهة ثانية، فأمّا كون نشأتها استجابة لحاجة فنّيّة، وذلك بسبب تعلّق الأندلسيّين بالغناء، وولعهم بالموسيقى، أمّا نشأتها نتيجة ظاهرة اجتماعيّة، بسبب امتزاج العرب بالإسبان، وتشكيلهم شعبًا واحدًا، ممّا أنتج بينهم اللّهجة العاميّة اللّاتينيّة، وظهور اللّهجة العاميّة العربيّة، فكلّ ذلك كان سببًا في ظهور فن الموشحات وهو كلآتي:

البدايات الأولى كانت نشأة فن الموشحات في بداية عهدها، كنشأة أيّ فنّ من الفنون في بداية عهده، من حيث عدم النضّج وعدم الوصول إلى المبتغى، وقد عفا الدّهر عن جلّ الموشّحات التي نسجت في ذلك الزّمان، فلم يصل إلى هذا اليوم أيّ من الموشّحات أو النّماذج التي قالها "مقدم بن معافي القبّري" وأمثاله لبعد الفترة التي قيلت فيها، ولكن يمكن تصوّرها بأنّها كانت موشّحات بعيدة عن التّعقيد وبسيطة التّركيب، اتّخذت مجالها من الموضوعات الغنائيّة، كالغزل والخمرة والطّبيعة، وكتبت كلّها باللّغة العربيّة باستثناء الخرجة، التي كانت لا بدّ أن تُكتب باللّغة الأندلسيّة العاميّة، وكانت بلغتها وقالبها وأغراضها ترضي رغبة جميع الأندلسيين آنذاك، فكانت تعكس امتزاج لغتي العرب والإسبان واختلاط عنصرَيْهما، وانتشار الغناء والموسيقى فيما بينهم. التّطور كما سبق ذكرُه، فإنّ أيّ عمل أو فنّ من الفنون لا بدّ وأن يمرّ في فترة نشأته بمرحلة التّجربة حتّى يصل إلى قمّة نجاحه، فمن خلال الممارسة يمكن له أن يتطوّر وينضج، والموشّحات كذلك فقد تطوّرت تطوّراتٍ عديدة، وكان من أهمّ التّطوّرات التي أصابت فن الموشحات في القرن الحادي عشر الميلادي، في فترة حكم ملوك الطّوائف، ثمّ لحق بها تطوّر آخر، كان نتاجه شعر الزّجل، وقد أدّى هذا التّطوّر فيما بعد إلى لونين من الشّعر الأندلسي: لون الموشّحات، وأصبحت تكتب باللّغة الفصحى الخالصة، ولون شعر الأزجال، وقد كتب باللّهجة العاميّة، ثمّ انتقل هذان اللّونان من الشّعر من الأندلس إلى المشرق العربيّ، وراح الزّجّالون والوشّاحون يبدعون فيهما أيّما إبداع، وانتقلا بعد ذلك إلى أوروبا، فتأثر بهما شعراء جنوب فرنسا المسمّون بـ"التروبادور" وشعراء الإسبان الغنائيّون، وتأثر بهما الشّعر الإيطالي، متمثّلًا بالشّعر الدّيني "لاودس" والغنائي "بالاتا".

**خصائص الموشحات:** من أهمّ خصائص الموشّحات: أنّها جمعت بين اللّغة العربيّة الفصحى وبين اللّهجات العاميّة، كما أنّها تميّزت الموشّحات بتحرير الوزن العروضي والقافية، وترصيع أبياتها بأنواع من فنون النّظم المختلفة، من تناظر وتقابل واستعراض أوزان وقوافٍ مستحدثة، لتطرد ملل القصائد، إضافة إلى تلحينها المغاير لتلحين القصائد الشّعريّة التّقليديّة، من خلال الإكثار فيها من التّلوين والتّشكيل، ومن خصائصها أنّه يمكن تلحين أيّ موشّح على أيّ وزن موسيقي كان، مع وجود موازين خاصّة لها غير معتادة في الشّعر التّقليديّ وأشكال الغناء الأخرى  الأغراض الشعرية في فن الموشحات ما إن نزل العرب في أرض الأندلس، وبهرهم جمال طبيعتها وجمال نسائها، واستمالهم الغناء والموسيقى، فنسجوا الموشّحات مبتدئين فيها بالغزل، حيث تغزّلوا فيها بجمال المحبوبة، إذًا فنسجت الموشّحات في بادئ الأمر لخدمة غرض الحبّ والغزل، ومن موشّحات الحبّ والغزل، قول السّيّد المهدي متغزّلًا في هند:

شعشع البدر عليك يا هنادي صرتِ بدرا ًآخراً يزهو لديّا

كيفَ أنساكِ وقد صرتِ سهادي أرتوي من فمكِ نشو الحميّا

لا تغيبي بُعدِكِ يُدمي فؤادي بل تعالي لأرى منك المحيّ

إن تركتيني فو الله أنادي أين أنت أين ذاك المشهدِ

ومع مرور الزّمن، فقد تعدّدت أغراض الموشّحات، وتشعبت موضوعاتها، وراح الوشّاحون ينشئون موشّحاتهم في فنون الخمر ومجالس اللّهو، والغناء ووصف الطّبيعة والرّثاء والهجاء والمدح، ومن أجمل وأشهر الموشّحات التي قيلت في غرض المدح تلك الموشّحة التي نظّمها أحد أبرز الشّعراء الأندلسيين لسان الدّين بن الخطيب، يمدح فيها الأمير الغني بالله صاحب غرناطة، والَّتي تعدّ من الموشّحات الرّاقية الرّائعة، يقول لسان الدين:

    جَادَكَ الغَيْثُ إِذَا الغَيْثُ هَمَى يَا  زَمَانَ   الوَصْلِ   بِالأَنْدَلُسِ

لَمْ  يَكُنْ  وَصْلُكَ  إِلاَّ   حُلُمًا فِي الكَرَى أَوْ خِلْسَةَ المُخْتَلِسِ

وقد كانت مجالس الأمراء والخلفاء كثيرًا ما يجتمع فيها الشّعراء الوشّاحون، والمغنّون والملحنون، فيطرب ذلك الأمراء والخلفاء والجلساء، فيغدق الخليفة أو الأمير من عطائه على الوشّاح والمغنّي والملحّن، وما لبثت الموشّحات بعد ذلك أن تشعّب عنها غرض جديد مغايرًا لأغراض الموشّحات السّابقة، كأغراض الحبّ والغزل والخمر واللّهو والغناء، إنّه غرض الزّهد، ولا يبدو مستغربًا أن تطرق الموشّحات الأغراض الشّعريّة المتعدّدة، ولو كانت بداياتها بغرض الحب فليس من المعقول أن تبقى وقفًا عليه وعلى اللّهو والخمر والغناء، فلا بدّ أن تتعدّد أغراضها كما تعدّدت أغراض الشّعر العربيّ، ولذلك قال ابن سناء الملك: "والموشحات يعمل فيها ما يعمل في أنواع الشّعر من الغزل والمدح والرّثاء والهجاء والمجون والزهد، وما كان منها في الزّهد يُقال له المكفّر، والرّسم في المكفّر خاصّة أن لا يُعمَل إلا على وزن موشح معروف، وقوافي أقفاله، ويختم بخرجة ذلك الموشح...".

**شعراء الموشحات:** شعراء فن الموشحات كثر؛ ومن الصّعب أن يتمّ إحصاؤهم ، ولكن يمكن ذكر بعضهم ومن اشتهر منهم، وقد اختلف علماء الأدب والنّقاد ومن تتبّع هذا الفن؛ فيمنّ كانت له البادرة الأولى في فن الموشحات، فأغلب الآراء بأنّ أوّل وشّاح هو أندلسي وهو: مقدم بن معافي القبّري، ثمّ تبعه أحمد بن عبدربّه صاحب العقد الفريد الذي يعدّ في مقدّمة مبتدعي فن الموشحات في الأندلس، وقد أجمع المؤرّخون بأنّ المبتدع الفعلي لهذا الفن "أبو بكر عبادة بن ماء السّماء" المتوفى عام422هـ، ثم جاء بعد هؤلاء عبادة القزاز، ثم التّطيلي الأعمى الذي يعدّ من كبار شعراء الموشّحات، في عصر المرابطين المتوفّى عام 520هـ، وكذلك ابن باجة الشّاعر الفيلسوف المتوفى 533هـ، ولسان الدّين بن الخطيب وزير بني الأحمر بغرناطة المتوفّى سنة 776هـ، وأبو حسن علي الضّرير المشهور بالحُصري،[٦] وله قصائد كثيرة من بينها "يا ليل الصّبّ"، وقد كان من الشّعراء المقرّبين للمعتمد بن عباد، مات في طنجة، وابن زمرك الشّاعر الأندلسيّ له موشحة "أبلغ لغرناطة السّلام"، وابن مالك السّرقسطي، وقد استمر فن الموشحات في الأندلس منذ التّجديد الذي أحدثته مدرسة زرياب في الشّعر، فأبدعت فن الموشحات إلى سقوط غرناطة سنة 879هـ،

وأمّا في المشرق العربيّ، فكان الفضل لابن سناء الملك المصري المتوفى سنة 608هـ ، في انتشار فن الموشحات في كلّ من مصر والشّام وهو صاحب موشحة:

كللي يا سُحْبُ تيجانَ الربى بالحُلِي و اجعلي سوارَها منعطَفَ الجدولِ